العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع
من خلال الشعر و القصة الشعبية في الجزائر

د.ثريا التجاني
قسم علم الاجتماع/جامعة الجزائر2

المقدمة:

تختلف مجتمعات العالم عن بعضها البعض في العادات و التقاليد، والمبادئ والقيم، والتراث واللغة، وطريقة التفكير. وينعكس ذلك في آدابها. لأنّ الأدب يمثل نظاما اجتماعيا من أنظمة المجتمع، ممّا أدّى إلى التداخل بينه وبين علم الاجتماع. وباعتبار الإنتاج الأدبي يتناول ظواهر اجتماعية، لذلك لا يمكننا تفسير أيّ حدث فكريّ، دون التطرق إلى الوظيفة الاجتماعية لهذا الإنتاج، لأنها تشخص بعدا من أبعاد الواقع الاجتماعي.

وتأكيدا للعلاقة الوطيدة بين الأدب وعلم الاجتماع، ظهر علم الاجتماع الأدبي كفرع في علم الاجتماع. ويقوم هذا الفرع على النقد الاجتماعي من خلال الشعر والنثر، وذلك بوصف وتحليل الظواهر الاجتماعية. وقد حدّد المفكّر جاك دوبوا (J.Dubois) ظاهرة النقد الاجتماعي في التعامل مع الأدب باعتباره نظاما اجتماعيا.

تتمحور مداخلتنا حول ثلاث دراسات في النثر والشعر، نحاول من خلالها إبراز العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع.

1-الدراسة الأولى: دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري (دراسة ميدانية)، للدكتورة ثريا التجاني (منشورة).

2-الدراسة الثانية: المائدة في الشعر العربي القديم (قراءة انثروبولوجية)، للدكتور بركة بوشيبة، (غير منشورة).

3-الدراسة الثالثة: الشعر الملحون الديني الجزائري (1830- 1954) للأستاذ عبد القادر فيطس (غير منشورة). إذ تناولت هذه الدراسات مضامين أدبية تختلف بين الشعر والنثر، وعالجتها بواسطة مناهج اجتماعية، تصف وتحلّل لنا علاقتها بالمجتمع.

ملخص الدراسة الأولى: دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري(وادي سوف نموذجا)

يتألف هذا العمل من قسمين، يمثلان نظرة موضوعية في نطاق الجغرافيا الثقافية في ميدان بحث لم يتطرق إليه إلا القليل، بحيث عالجت الباحثة فيه وضع القصّة في منطقة من الجنوب الجزائري (ولاية وادي سوف) من ناحية أبعادها الطبيعية والحضارية.

وتناولت هذه الدراسة في قسمها الأوّل العلاقة بين القصة والمجتمع الأصلي، ووظائفها الاجتماعية، وأبعادها اللغوية والمعجمية والفنية. سجلت فيها الباحثة من خلال ملاحظاتها في هذا القسم البعد

الاجتماعي لوضع المرأة داخل الجماعات الفلاحية-الريفية بعد استقرارها. بينما تناول القسم الثاني من الدراسة مدوّنة تتضمّن أربع و عشرين قصّة شعبية ، جمعتها الباحثة من الميدان عن طريق عينة من الرواة المحترفين وغير المحترفين من جميع المستويات الاجتماعية والثقافية، و تناولتها بالتحليل. وأنهت الباحثة دراستها بوضع معجم يشرح لنا المفردات الواردة في هذه القصص، بيّنت لنا فيه العلاقة الدلالية التي تربط بين اللهجة السوفية واللغة العربية الفصحى. وتتلخص المساهمة التي قامت بها الباحثة من خلال هذه الدراسة في ثلاث نقاط:

1- ساهم هذا البحث في المحافظة على جزء من التراث الثقافي للجزائر العميقة، بجمعه وتحليله لفهمه فهما أفضل.

2- جددت الكاتبة بهذا العمل في منهجية البحث الأدبي، وذلك بجمعها لعدة ميادين مختلفة، تتمثّل في الجمع بين الأدب والأنثروبولوجيا، و التاريخ وعلم الاجتماع في بحث واحد.

3- فتحت الباحثة باب الدراسة لبحوث جديدة وخصبة لمعالجة القصة الشعبية الجزائرية على اختلاف أنواعها، ومدى اتساعها.

ملخص الدراسة الثانية: المائدة في الشعر العربي القديم (قراءة أنثروبولوجية)

يتألّف هذا العمل من مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة. حيث استخدم فيه الباحث المنهج الأنثروبولوجي، الذي يعتبر من المناهج الاجتماعية المهمة في دراسة المجتمعات القديمة والحديثة. حيث عرّف بمصطلح الأنثروبولوجيا وفروعها ومدارسها، ومجال الأنثروبولوجيا الحديثة وعلاقتها بالعلوم الأخرى ، خاصة الأدب. ويقول الباحث في هذا المجال: " تربط علم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والجغرافيا والاقتصاد والسياسة، علاقة أولية بصفته علما اجتماعيا، كما يرتبط هذا العلم بالعلوم البيولوجية والدراسة الأدبية، والفنية، لتركز اهتمامها على الإنسان والدراسات الإنسانية، كعلم التاريخ، ودراسة الأدب، ودراسة الفنون، ودراسة الموسيقى لأنها تهتم بفهم تذوق الثقافات الإنسانية المختلفة " (بركة بوشيبة، 2008، ص 16).

وتناولت الدراسة في فصلها الأوّل الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي القديم، ومصادر المعيشة وتوزيع الثروة فيه، وظواهر الغنى والفقر، وتدفق الأموال وتعقد الحياة، والبعد الأنثروبولوجي لظاهرة الصعلكة.

وتناول الباحث في الفصل الثاني من الدراسة البعد الدلالي الثقافي والاجتماعي لمفهوم المائدة (الطعام)، وآدابها وتطورها.

وتحدث الباحث في الفصل الثالث من الدراسة عن المطبخ العربي، وأثر الأمم الأخرى مثل الروم والفرس في تطويره، كما تناول أواني الطعام، وبعض ولائم العرب، والأطعمة المحبوبة والمذمومة لدى العرب.

كما وصف الباحث في الفصل الرابع من الدراسة مجالس الشراب، وشيوع الخمر وعنصر الطيب والموسيقى، ودلالة الزمان والمكان في المجتمع العربي. وختم الباحث دراسته بما توصل إليه من نتائج حول أهمية ونوعية الطعام في المجتمع العربي القديم عن طريق الشعر.

ملخص الدراسة الثالثة: الشعر الملحون الديني الجزائري (1830-1954)(دراسة تحليلية فنية)

تتكون هذه الدراسة من المقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة ،حيث يرى الباحث أن مادفعه إلى القيام بهذه الدراسة ،اقتناعه بالموقع التاريخي الذي يحتله الشعر الملحون في التراث الشعبي في المجتمع الجزائري، حيث أصبح اتجاها معرفيا خصبا يحتاج إلى الجمع والدراسة ، لارتباطه بمسؤولية حضارية تتعلق بمصيرنا التاريخي والأدبي والديني. ومسايرته للتحولات الثقافية التي يعيشها المجتمع الجزائري، لأن هذا النوع من الشعر لا ينصهر في الفضاء الأدبي والثقافي فحسب، بل يتعلق بالمجتمع الجزائري و مكوناته الحضارية برمتها.

يتضمن مدخل الدراسة أهمية الشعر الملحون الديني ومكانته عند الجزائريين في عهد الاستعمار الفرنسي، واستلهام شعراء الملحون المعاني والقيم من الدين، معتمدين على الخطابة واستعارة أسلوبها وأدواتها للتأثير في المستمعين.

ويتضمن الفصل الأول مصادر الثقافة في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي ، ودور تلك المصادر في الحفاظ على التراث الديني كالزوايا والطرق الصوفية التي لعبت دورا بارزا في حماية العقيدة الإسلامية من الاندثار ، والمساجد التي قامت بدور جليل في ترسيخ تعاليم الدين والحفاظ على الشخصية الوطنية ، وصيانة الهوية الجزائرية. والكتاب كمؤسسة تربوية ساهمت في القضاء على الأمية والجهل. والعلماء وأئمة الدين الذين ربوا الأجيال ، وهم شيوخ الزوايا و علماء الحركة الإصلاحية ،والراوي الشعبي ودوره الفعال في حفظ التراث الشعبي الجزائري من الاندثار، بالإضافة إلى جهود المداح" القوال الشعبي" في تبليغ الرسالة الدينية والفنية. والأسواق الشعبية التي كانت مركزا أدبيا وفنيا ، بالإضافة إلى الوعدات الشعبية كبؤر تكرس بعض المعتقدات والطقوس الدينية في المجتمع الجزائري.

ويتضمن الفصل الثاني من الدراسة، دراسة تحليلية لمفهوم الشعر الملحون الديني ومواضيعه المختلفة التي تشمل المديح بشتى أنواعه ، والنصائح الداعية إلى التحلي بالأخلاق الحميدة ، ووصف رحلة الحج والدعوة لأداء مناسكه. وقصص الأنبياء.

وخصص الباحث الفصل الثالث من الدراسة للجانب الفني ، من حيث اللغة والصورة والموسيقى الشعرية ،وذلك بتحليل مستويات الصوت والألفاظ والجمل في الخطاب الشعري. كما تناول وظائف الصورة الشعرية ومقوّماتها ومصادرها في الشعر الملحون، والكشف عن الذال والمدلول فيها بالإضافة إلى أنواعها وعناصرها. وتحدث الباحث عن القيمة الايقاعته للصوت كالوزن والقافية، كما تتبع الأشكال المختلفة للموسيقى الشعرية التي أخذها الشعر الملحون الديني. واعتمد الباحث في هذه الدراسة على مجموعة من الدواوين والمتون الشعرية للشعر الملحون الجزائري، واستفادة الدراسات الشعبية و الصوفية.

العلاقة بين الادب والعلوم الأخرى :

لاشك انه توجد علاقة بين شتى العلوم الإنسانية منذ بداية الخلق وفي المجتمعات مختلفة، من حيث تكاملها ومعالجتها للظواهر مهما كان نوعها ، لاسيما أن الأدب يعكس الوقائع والصور الاجتماعته التي يمكن تشخيصها في المجتمع، واستقاء العبرة منها، لذلك نجد العلاقة بين هذا الأخير والعلوم الأخرى وطيدة خاصة علم الاجتماع. ويرى الباحث شكري عزيز ماضي بوجود حدود تماس بين الأدب والعلوم الأخرى، ونستخلص من خلال اطلاعنا على كتابه(في نظرية الأدب) الجذور الفلسفية والفكرية والاجتماعية للمدارس النقدية التي أغنت

الدراسات الأدبية مبينا سياقها وأبعادها وما تجسده من رؤية للأدب والنقد واللغة والإنسان والعالم.

ويعد ذلك انفتاحا على المنهجيات الغربية قديمها وحديثها، ولا يغفل الكتاب الجهود النقدية والمنهجيات العربية الإسلامية المتناثرة في كتب النقد والتاريخ والتراث، فيقدم لنا نماذج منها سواء من خلال دراسات أو كنصوص منفصلة، مما يجعل منه مرجعا أدبيا نقديا وأكاديميا لا غنى عنه (شكري عزيز ماضي 2005).

وبالتطور الفكري والمعرفي عامة، شهد العقدان الأخيران من القرن العشرين تطورات جذرية في الدراسات المقارنة والنقدية، ربما كان أبرزها وأكثرها تحديا (لا سيّما للقارئ العربي)، ذلك التوسع المذهل في دراسة علاقة الأدب بالفنون والمعارف المختلفة(http://www.almarefa.com.vb/).

ويتمحور موضوع مداخلتنا حول العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع، وقد استلهمنا هذا الموضوع من خلال بعض الدراسات في هذا المجال نذكر من بينها دراسة في علم اجتماع الأدب قام بها أحد الباحثين، وحاول إبراز الدوافع التاريخية والحضارية والقومية التي حدت بالمثقفين إلى ضرورة البحث عن أساليب تعبيرية جديدة، وبلورة رؤى وصياغات مغايرة لتلك التي سادت في مرحلة سابقة. وتبدو أهمية هذه الدراسة في الكشف عن الدور الذي يلعبه المجتمع في صياغة النصوص الأدبية، في مختلف المجتمعات وفي عصور

متباينة، مما يكشف عن اختلاف وتنوع الأدبيات من عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، ويوحي لنا بوجود ارتباط بين الأدب والمجتمع (حسين عبد الحميد أحمد رشوان، 2005).

العلاقة بين علم الاجتماع والأدب:

يعتبر الباحثون في علم الاجتماع المجتمع نسق إجتماعي كلي يتضمن أنساقا فرعية، كالنسق الأسري والسياسي والاقتصادي، والتربوي والصناعي والطبقي وغيرها من الأنساق الأخرى (حسن الساعاتي، 1980، ص 4-5). وهذا يعني أن الأدب نسق من الأنساق الاجتماعية التي لا يمكن الاستغناء عنها، ذلك لأنه مرآة عاكسة لما يجري في المجتمع من أحداث، وممارسات يعبر عنها من خلال الشعر والنثر.

ونستشف ارتباط علم الاجتماع بالأدب من خلال تعريف عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (Max Weber) الذي يقول أنه: "علم يكرس جهوده للوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي في أسبابه ومصاحباته" (علي أسعد وطفة،1993،ص 10). نفهم من ذلك أنّ هذا العلم يهتم بشرح ودراسة الظاهرة، من الجانب المعرفي قصد فهم الظاهرة الاجتماعية دون الاهتمام بقانونيتها، وذلك بدراسة أسبابها وتوقع نتائجها.

ويلتقي الأدب وعلم الاجتماع في أنه أحد أشكال التعبير الإنساني عن مجمل عواطف وأفكار وخواطر وهواجس الإنسان

بأرقى أساليب الكتابة، التي تتنوع من النثر المنظوم والشعر الموزون، لتفتح للإنسان طرق القدرة على التعبير عما لا يمكن أن يعبر عنه بأسلوب آخر. وهذا يجعلنا نكتشف جانبا آخر له أهمية عظمى، يتمثل في ارتباط الأدب كسائر العلوم الأخرى بعلم اللغة ارتباطا وثيقا سواء كانت شفوية أو كتابية. فالنتاج الحقيقي للغة المدونة، والثقافة المدونة بهذه اللغة يكون محفوظا ضمن أشكال الأدب وتجلياته، التي تتنوع باختلاف المناطق والعصور، وتشهد دوما تنوعا وتطورا على مر العصور والأزمنة (http://www.marefa.org.index.php/).

ونجد الأدب الشعبي بشطريه خير معبر عن آمال وآلام المجتمع. ويظهر لنا ذلك من خلال تداخل النظريات المعرفية المختلفة، والاشتراك بين العلوم المختلفة في بعض عناصرها.

تداخل النظريات المعرفية بين الأدب وعلم الاجتماع :

تجمع النظريات المعرفية بين العلوم المختلفة، ويستخدم كل علم النظرية التي تناسبه، مع الاشتراك في بعض عناصر تلك النظريات بين شتى العلوم، نذكر من بينها نظريات المحاكاة والتعبير والالتزام في الأدب التي يشترك فيها مع علم الاجتماع. وكذلك المناهج المستخدمة في تحليل النصوص الأدبية والاجتماعية عن طريق الوصف والتحليل.

نظرية المحاكاة:

يقوم المسرح على المحاكاة كعنصر أساسي ويكون ذلك من خلال التمثيل، حيث يتخلل المسرحية دائما عبرة اجتماعية أو أخلاقية، وهو لا يقصد من خلال ذلك " محاكاة الأخلاق، لكنه يتناول الأخلاق عن طريق محاكاة الأفعال، ومن ثم فإن الأفعال والقصة هي غاية التراجيديات، والغاية أعظم شيء، ثم إنك لا تجد تراجيديا قد خلت من محاكاة فعل. ولكنك قد تجد تراجيديا خالية من محاكاة الأخلاق" (شكري عياد، 1967، ص52). وهذا يقابله في علم الاجتماع نظرية الفعل الاجتماعي أو النظرية السلوكية، التي يمثلها ماكس فيبر.

نظرية التعبير:

وظهرت على أنقاض نظرية المحاكاة نظرية بديلة بثها فلاسفة يؤمنون بالنزعة الفردانية، التي تجعل من الفرد عالما قائما بذاته، يتمتع بجوهر يضم الشعور والوجدان والعاطفة، وله كامل الحرية في التعبير عن ذاته، وله حرية التفكير والعمل، حيث " نجد أرسطو حريصا على أن ينص أن الشاعر حر في انتخاب موضوع المأساة" (سهير القلماوي، 1953، ص105). لكن هذه الحرية المقصودة مآلها إلى الموضوع الأساسي المحاكاة، والنظرية البديلة التي قامت على أنقاض نظرية المحاكاة الإغريقية تدعى نظرية التعبير. ويتمثل ذلك في تعبير الفرد عن ذاته الذي طالما سلبته إياه النظرية الكلاسيكية، حيث كان شعار هذه النظرية (دعه يعبر عن ذاته)، كما كان شعار

النظرية الليبرالية الاقتصادية (دعه يعمل دعه يمر) (المرجع نفسه، ص50).

نظرية الالتزام:

لا تعتبر هذه النظرية الإنتاج الأدبي منفصلا عن السياق الاجتماعي الذي ظهر فيه، لأنه موجّه إلى الاستهلاك الاجتماعي والتأثير في المتلقي، وتشكيل الذوق الاجتماعي وتغيير السلوك. وهكذا كان الأدب وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي، وتمثل اللغة التي يستعملها الأديب مؤسسة اجتماعية، وليست مجرد أداة للتعبير الجمالي أو النفسي فقط. ولا يؤدي الأدب وظيفته التعبيرية إلاّ حين يكون مرآة تعكس الحياة الاجتماعية بمختلف أبعادها، وعلاقات الصراع التي تسودها. وظهر في هذا السياق ما يسمى بنظرية الالتزام في الأدب، التي تعتبر الأديب صاحب رسالة وموقف اجتماعي يعبر فيه عن رؤيته الخاصة للعالم. (...-AA%D9%85%D8%B9%...)

الأديب والمجتمع:

الأديب باعتباره إنسان وفرد يعيش في مجتمع مهما كانت طبيعته، فهو يأخذ ويعطي ويتفاعل مع بقية أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، وبالتالي يؤثر في الظواهر الاجتماعية ويتأثر بها. ويشعر من خلال مشاركته الاجتماعية في الوسط الذي يعيش فيه، بما يتفاعل داخله من حركية وصراع. هذا ما يجعل الأدب صورة طبق الأصل عن المجتمع، ويعكس العلاقات الاجتماعية السائدة فيه. ولا يعتبر

الأديب معزولا عن المجتمع لكنه فرد ينتمي إلى طبقة اجتماعية لها مصالح وطموحات في واقع اجتماعي موسوم بالصراع والتدافع، وهو مجبر على رفع صوته للدفاع عن وجهة نظره من القضايا المصيرية في مجتمعه سواء بالتبني أوالشجب، ويكون ذلك بواسطة الشعر أو النثر.

النصوص الأدبية والمنهج الاجتماعي :

لقد وظف العديد من النقاد العرب المنهج الاجتماعي في قراءاتهم للأعمال الأدبية، نذكر من بينهم محمد مندور وغالي شكري وحميد لحميداني. حيث يرتبط هذا المنهج بقراءة النصوص الأدبية وتحليلها من منظور مدى تعبيرها عن الوسط الاجتماعي الذي أنتجها، وهو بذلك يتعامل مع الظاهرة الأدبية ليس بوصفها ظاهرة مستقلة بذاتها، وبخصوصيتها وفرادتها الإبداعية. وإنما يعتبر النصوص الأدبية وسائر الفنون غير مستقلة عن شروط إنتاجها الاجتماعي، وتحمل داخلها آثار المجتمع والجماعة، والمؤسسة الأدبية التي أنتجتها، مستفيدا من أدوات علم الاجتماع في معالجته للظواهر الإنسانية والاجتماعية المختلفة. ومر الأدب عبر بمراحل متعددة حسب التغيرات التي تعرضت لها المجتمعات الإنسانية، ونذكر أبرز التيارات التي ميزت الإبداع الأدبي التي تتمثل في التيارين الرومانسي والواقعي.

انتقال الأدب من الرومانسية إلى الواقعية:

لا يعد الأدب ترفا أو متعة فقط، بل ضرورة من حيث هو نشاط إنساني لا تستغني عنه أمة من الأمم. ولا يعتبر معزولا عن غيره من المعارف والعلوم، لأنه يؤثر في مجرى الحياة الاجتماعية، كما يتأثر بالعديد من المعطيات الاجتماعية والمعرفية المختلفة. وكان انتقال الأدب من المرحلة الرومانسية التي أغرقته في الخيال حتى أصبح لا يمت بصلة إلى واقع المجتمع، إلى المرحلة الواقعية، التي بدأت تعود بالأدب إلى الاهتمام بالواقع الاجتماعي، لحاجة أفراد المجتمع للتعبير عن واقعهم الاجتماعي الذي كان مأساويا من جراء الأزمات والحروب. وكانت الحرب العالمية الثانية حدا فاصلا بين عهد كانت تتسع فيه الرومانسية للوفاء بتطلعات شخصية (فردية) في الرواية، وعهد لا يستطيع الوفاء التعبير عنه إلاّ بالواقعية، التي ترى الواقع بصورته الشاملة (طه وادي، 1980، ص60).

حاول الباحث لوسيان غولدمان (Lucien Goldman) من خلال نظريته إقامة توازن بين الذاتي والموضوعي، في النظر إلى الواقعية الأدبية، حيث يرى أن هناك تمازجا بين شخصية الأديب وفلسفته في الحياة داخل بناء له خصوصيته من حيث البناء التخيلي لعالمه وبين الوعي الجماعي، إذ يقول في ذلك: " فمعظم أعمال سوسيولوجيا الأدب في الحقيقة تقيم علاقة بين أهم المؤلفات الأدبية والوعي الجماعي لهذه الجماعة الاجتماعية أو تلك التي ولدت هذه

المؤلفات داخلها" (لوسيان غولدمان، ترجمة بدر الدين عرودكي، 1993، ص24).

العلاقة بين الأدب الشعبي الجزائري وعلم الاجتماع:

بعد أن بينا العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع عامة في القسم الأول من هذه المداخلة، ارتأينا أن نبين العلاقة بين الأدب الشعبي الجزائري، شعرا ونثرا، في القسم الثاني منها. إذ وقع اختيارنا على ثلاث دراسات أكاديمية، ذكرنا ملخصاتها آنفا تشمل القصة والشعر. وذلك لأنّ الأدب يعكس واقع المجتمع الذي ينتجه، وتدخل هذه الدراسات في مجالي الأدب العربي القديم والأدب الشعبي الجزائري. ويرى الباحثون في هذا المجال أنّ الأدب الشعبي يلعب دورا بارزا في حياة أيّ شعب من الشعوب، لأنّه يعبر عن واقعه ويسجل الأحداث الهامة من تاريخه، ويصور لنا عادات وتقاليد المجتمع، ويبرز لنا ميوله واختياراته الأصيلة. والدارس للأدب الجزائري الحديث منذ الغزو الفرنسي للجزائر حتى الاستقلال،- يلاحظ الدور الفعّال لذي لعبه الأدب الشعبي – شعرا ونثرا – في التنفيس عن المشاعر الحبيسة، وحثّ الشعب على الدفاع عن كيانه والتشبث بمقوماته وذاتيته، ضد محاولات الاستعمار الدنيئة لتذويبه وطمس شخصيته القومية (روزلين ليلى قريش، 1980، ص3). ونعرض فيما يلي وجهة نظرنا في العلاقة بين الأدب الشعبي وعلم الاجتماع، من خلال

العلاقة بين هذا الأخير والقصة الشعبية، ثم العلاقة بينه وبين الشعر الشعبي في الجزائر.

القصة الشعبية الجزائرية والواقع الاجتماعي:

تعد القصة محاكاة لما يجري في المجتمع مهما كان نوعها شعبية أو فصيحة، وقرأنا مقال لتوماس مان (Tomas Man) استعرض فيه تطور القصة منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحديث بقوله: إن القصة شعبية في طابعها لأنها كانت شعبية النشأة حين نشأت في الشعوب القديمة مثل قصة سنوحي عند المصريين القدماء، وغيرها... والمهاباراتا في الهند، والإلياذة في اليونان (محمد زغلول سلام، 1987، ص37)، وقصتا الجازية وحيزية في الجزائر. وتعني القصة الشعبية للباحثة تلك القصة البسيطة من حيث اعتمادها على الرواية الشفهية باللغة أو اللهجة، التي يتكلمها معظم أفراد الشعب والموجهة إلى جميع أفراد المجتمع للتعبير عن أحلامهم وآمالهم، وأهدافهم في الحياة، وتتضمّن عدة جوانب، منها الاجتماعي والنفسي والاقتصادي، والثقافي والديني الغنية بمعانيها الهادفة (ثريا التجاني، 1998، ص15). ونعرض الدراسة الأولى في بحثنا التي قامت بها الباحثة حول القصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري.

دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري:

قامت الباحثة بجمع مدونة تتكون من أربع وعشرين قصة، سجلتها على أشرطة صوتية، مباشرة من أفواه عينة من الرواة

المحترفين وغير المحترفين. وكان ذلك في إطار تحضير شهادة الماجستير في الأدب الشعبي. وبعد انتهاء عملية جمع وتفريغ القصص، بدأت الباحثة بالتحليل والدراسة مستعينة بالمنهج الوصفي مستخدمة بعض فنيات المنهج الوصفي والتاريخي والإحصائي. وأبرزت لنا من خلال ذلك وضع المرأة في منطقة البحث، الذي كان يتأرجح بين الصورة السيئة التي رسمها المجتمع لها أحيانا، والمكانة المرموقة أحيانا أخرى. وهذا في حد ذاته يعكس لنا العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة في مجتمع البحث في قالب أدبي، حيث تعطينا القصة الحادية والعشرون بعنوان (لوما بوجرانة ما يحصل بوسريع)صورة سيئة عن المرأة، وذلك بإدانة المجتمع لها باعتبارها مصدر كل شر يصيبه، من خلال العبارات التالية: (قاتلهم: راو راجلي تقاز، كان شتيتو جيبوه يتقز عليه، هاي هي قاتلة قدام في العشية آو الخلخال في البير...). هذا يعني أن الرجل لم يخطر بباله فكرة الشعوذة، لكن زوجته دبرت الحيلة ليصبح زوجها منجما يبتز أموال الناس عن طريق الشعوذة. ويصبحان من الأغنياء الذين يتمتعون بحياة الرفاهية دون عناء كما جاء في نهاية القصة.

وبالرغم من النظرة السلبية للمرأة الغالبة على مجتمع المنطقة، لكن لا يخلو الأمر من المكانة التي يعطيها المجتمع لبعض النساء، من ناحية الخصوبة والذكاء. وهكذا تعطينا القصة الرابعة من المدونة، بعنوان (طنيجرة المهوية) فكرة عن مكانة المرأة في المجتمع، وذلك

بعودة الفتاة إلى الحياة بعد موتها، مرة في شكل شجرة مثمرة، ومرة أخرى في شكل طائر، التي ترمز إلى الخصوبة التي تعتبر المرأة المصدر الأساسي لها. ويظهر ذلك في العبارة التالية: (... هك الطفلة هذيك كان ضحكت يطيح اللولو والمرجان، وكان مشت تخلف العشب والنوار...) يعني هذا خصوبة المرأة التي تثري المجتمع بولاداتها. وربما تقصد القصة بذلك الاستمرارية، فالإنسان لا ينقرض ذكره بمجرد موته، لأنه يترك وراءه من الذرية والأفعال ما يخلد ذكره بعد موته (ثريا التجاني، 1998، ص64).

وبينت لنا هذه الدراسة الفئات الاجتماعية والصراع الاجتماعي الذي يسود مجتمع القصة، الذي ينعكس على العلاقات بين أفراد المجتمع، وتعرضت الباحثة إلى مراحل تطور الأسرة وخصائصها في منطقة البحث، وكذلك البعد السياسي في القصة الشعبية. كما أبرزت لنا هذه الدراسة بعض المعتقدات والممارسات الشعبية كالقدرية، وعادة الحناء وعادة شرب الشاي، وعادة عدم تزويج البنت الصغرى قبل الكبرى، وكذلك الاعتقاد في السحر وممارسته وغير ذلك.

أمّا الدراسة اللغوية فأبرزت لنا المميزات الصوتية الخاصة بمنطقة البحث مثل بعض الحركات المتميزة في اللهجة، وبعض الحروف الخارجة عن النطق المألوف في اللغة العربية الفصحى. حيث لاحظت الباحثة بعض الحروف في لهجة المنطقة الخارجة عن

النطق المألوف في اللغة العربية الفصحى. إذ يتخلص أهل المنطقة في معظم الأحيان من الهمزة في حديثهم مثل نطق الراوية للفظ الأردن (لردن)، و (سودا) للفظ سوداء. كما ينطقون لفظ الشجرة (سجرة)، وكلمة جهاز ينطقونها (زهاز) وهنا يتم استبدال حرف بآخر في النطق. لاحظت الباحثة من الناحية البلاغية استعمال أهل المنطقة للرمزية في لهجتهم، وأدوات التشبيه، والتورية. ومثال ذلك: "التورية اللطيفة التي تتضمنها القصة الثانية بعنوان ستوت، ما استخدمه الراوية من خلال عبارة قالها القاضي لنسائه بخصوص العجوز النصابة ستوت في هذه القصة (ردوا بالكم منها)، فهو كان يقصد احرسنها حتى لا تهرب. بينما فهمت النساء أنه يقصد حسن ضيافتها. وكان القاضي يقصد المعنى البعيد المهمل وهو الحراسة، حتى لا تفهم ستوت مقصوده. لا المعنى الذي استعمله وفهمته النساء، وهو إكرامها بدل حراستها. وكانت النتيجة أنها أكرمت بدل أن تحرس. واستغلت العجوز طيبة نساء القاضي، وسخرت منهن فأخذت حليهن وهربت (المرجع نفسه، ص 95)

نستخلص من كل ما سبق أنّ الباحثة عالجت في القسم الأول من هذه الدراسة العلاقة بين القصة والمجتمع المحلي ووظائفها المحلية، وأبعادها المعجمية واللغوية والفنية، كما سجلت الباحثة من خلال دراستها في هذا القسم البعد الاجتماعي لوضع المرأة داخل الجماعات الفلاحية الريفية بعد استقرارها. وأبرزت لنا الباحثة في القسم الثاني

من دراستها من خلال مدونتها العلاقة بين اللغة والمجتمع المحلي، وأنهتها بوضع معجم يشرح لنا المفردات الواردة في هذه القصص، وبينت فيه العلاقة الدلالية التي تربط بين اللهجة السوفية واللغة العربية الفصحى.

الشعر والشعر الشعبي والمجتمع:

لقد اخترنا الدراستين المذكورتين لإبراز العلاقة بين الشعر والمجتمع، إحداهما تناولت المائدة (الطعام) في الشعر العربي القديم واستخدم فيها الباحث المنهج الأنثروبولوجي. وتناولت الثانية الشعر الملحون الديني الجزائري في فترة الاستعمار، والدور الذي قام به في المحافظة على الثوابت الوطنية عن طريق الدين الإسلامي الذي جعل أفراد الشعب يتضامنون باسمه لإخراج المستعمر الفرنسي. ويقول أحد الباحثين في هذا الصدد: "يتميز الشعر الشعبي الجزائري بالروح الوطنية، والدفاع عن الحرية والكرامة، فقد تابع الثورات الجزائرية المتعاقبة، وسجل انتصاراتها في حماس كبير، كما سجل هزائمها في حسرة وحزن، وحارب الظلم والطغيان في كل أشكاله وصوره، وكان مدفوعا في هذا الحماس الفياض بروح دينية إسلامية. فرأى في الغزو الاستعماري غزوا للإسلام في المشرق والمغرب، بحيث يمكن القول بأن منطلقات الشعر الشعبي الجزائري منطلقات واقعية، نابعة من آلام وجراح الشعب الجزائري، ليس فيها من الخيال والتصور إلاّ

ما يدعم الواقع الاجتماعي، ويعطي الصورة الشعرية بعدها ووقعها في نفس القارئ " (التلي بن الشيخ، 1990، ص6).

المائدة في الشعر العربي القديم (قراءة انثروبولوجية):

استخدم الباحث المنهج الأنثروبولوجي في دراسته الأدبية لفهم الممارسات التي ترافق مائدة الفرد العربي وسلوكه وتفكيره، وطقوسه التي كانت بمثابة القوانين التي حماها ونشرها في بيئته. وتدرس الأنثروبولوجيا حياة الإنسان في المجتمع القديم أو الحديث وهي فرع من فروع علم الاجتماع، وبالتالي تلتقي مع الأدب في هذه الدراسة في الوقوف على دور الشعر في الحياة الاجتماعية للإنسان عدا المتعة النفسية والترفيهية. ذهب الباحث يحلل ظواهر اجتماعية يتحلى بها المجتمع العربي، ذكر منها الشاعر ظاهرة الكرم في المجتمع العربي، التي قرنها الباحث بإشعال النار لقرى الضيف. وذلك لما للكرم "ما يرافقه من التفكير وارتباطه بإيقاد النيران ، فإن نار القرى كانت من أعظم مفاخر العرب، يقودونها في ليالي الشتاء، ويرفعونها لمن يلمس العرب، وكلما كانت أضخم وموضعها ارفع، كانت أفخر، وهم يتمادحون بها في البيت الشعري التالي:

له نار تشب بكل واد إذا النيران ألبست القناعا

وظل هذا المعنى قائما عند شعراء العصور الموالية، كما ورد في قول الشاعر ابر هيم بن هرمة:

إذا ضل عنهم ضيفهم رفعوا له من النار في الظلماء ألوية حمرا

(بركة بوشيبة 2008، ص26-25). يجسد لنا هذان البيتان الشعريان عادة حميدة في المجتمع العربي تتمثل في إكرام الضيف وتفانيهم في ذلك، حتى ولو كان ذلك على حساب أشياء أخرى، اذ يضيئون الطريق بواسطة إشعال النار حتى يستدل الضيف إلى خيمة يجد فيها القرى من أكل واستراحة من تعب السفر. وقد يكون ذلك الضيف يريد بهم شرا كالجاسوس مثلا.

وتعكس لنا بعض القصائد الشعرية بعض الصفات التي اكتسبها البيئة الصحراوية لسكانها كالغلظة والتوحش وجفاف الطبع وتوقد الذكاء، وسرعة البديهة، والشجاعة. علما انه في غياب الأمن و الاستقرار والطمأنينة ينعدم التعمق في التفكير، ويستحيل تسجيل الأحداث التي تمر بهم وربطها بعللها ... ويتحدد في هذا الإطار نمط تفكير الفرد العربي في العصر الذي يعيش فيه، وتوضع الخطوط العريضة لعقليته. ويكون لهذه البيئة أثرا آخرا في أخلاق الأفراد وسلوكهم وعقليتهم كلما تغيرت أحوالهم ، مثلما جسدها الشاعر زهير بن أبي سلمى في البيت التالي:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

يريد الشاعر من هذا البيت أن الشخص الذي لا يدافع عن نفسه وأهله سوف يهزم ويذل، وبالتالي على الإنسان أن يتبنى سياسة الهجوم، حتى لو اضطر إلى ظلم الآخرين، والإنسان في هذه الدنيا إما ظالما وإما مظلوما، لذلك عليه أن يكون في موضع القوة حتى يحمي

نفسه من هجمات الآخرين. ويقول في هذا الصدد الشاعر دريد بن الصمة الذي يصور الإغارة تصويرا دقيقا في البيت التالي:

يغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

ونستخلص من هذين البيتين أن قسوة الحياة ومرارة البؤس، وشدة الجوع ، تدفع الناس إلى الإغارة ورد الإغارة، أو الغزو والتحالف والحرب والتغني بالشجاعة (المرجع نفسه، ص22). ويتطابق هذا المعنى مع رأي علماء الاجتماع في أن المحيط يتدخل في تكوين شخصية الفرد من بينهم عالم الإجتماع الفرنسي دور خايم (Dur Kheim).

الشعر الملحون الديني الجزائري (1830- 1954):

تعرضت هذه الدراسة التحليلية الفنية للشعر الملحون الديني إلى مكانة هذا الأخير عند الجزائريين، وأهميته في حفظ التراث وحثه على التمسك بالعقيدة الإسلامية. واطّلعنا من خلالها على مصادر الثقافة الدينية في الجزائر أثناء فترة الاستعمار، المتمثلة في مؤسسات قوية حافظت على الشخصية الوطنية من المسخ، مثل المساجد والزوايا والطرق الصوفية والكتاتيب وعلماء الدين وغيرها. حيث أبرز لنا الباحث مهمة الزاوية في عهد الاستعمار التي لم تقتصر على التعليم فقط بقوله: "قامت بأعمال جليلة حيث علمت الجاهل وحافظت على كتاب الله العزيز واللغة العربية، وصانت الشريعة الإسلامية، وساعدت الفقراء... وأوت العجزة، واستقبلت أبناء السبيل، ومنعت

أبناء المسلمين من اللجوء إلى المحاكم الفرنسية، فكانت الزوايا محاكم المسلمين لحل المنازعات وتسوية الخلافات بينهم بالمصالحة والتسامح (عبد القادر فيطس،2008، ص16).

كما يبين لنا الشعر الملحون الديني بعض معتقدات أفراد المجتمع، ويظهر ذلك من خلال الأغاني والأناشيد الدينية. إذ يقول الباحث في ذلك: إن "المتتبع للأناشيد والأغاني الشعبية التي يتغنى بها الفلاحون والصيادون والنساء في المواسم المختلفة، تفتتح بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، ليس من قبيل نهج الشعراء، وإنما ذكره بدافع قصدي باعتباره واجب ديني، لأن الصلاة على الرسول في نظرهم مبعث للبركة والخير في الدنيا، ومصدر للشفاعة والمنقذ من العذاب يوم القيامة، كما نجد ذلك في أغنية بحرية من التراث الجيجلي مطلعها:

لا إله إلاّ الله لا إله إلاّ الله محمد رسول الله
شهدوا يا مومنين شهدوا يا مومنين لاتموتوا كافرين
هكذا تمشي السفينة والصلاة على نبينا
هكذا تمشي و تقول والصلاة على الرسول"

(المرجع نفسه، ص 111).

لاحظنا من خلال هذه الدراسة أن الشعر الملحون الديني في الجزائر في الفترة الاستعمارية كان يتضمن أغراض مختلفة مثل الوعظ والإرشاد، ووصف رحلة الحج ومناسكه، والغزل، والحكمة

وغير ذلك من الأغراض الأخرى. كما يعرض لنا الباحث من خلال دراسته عدد من الأبيات الشعرية من قصيدة طويلة كما يأتي:

الدنيا في الزمـان الأول　　قالوا تريس واحد وتذل ألفيـن
اللي يدير الخير ما يجمل　　موت الحرمة ولا تمرميد الحيين
البعض من الشيوخ هامل　　وما يعرف للكلام راس ولا كرعين
كي الواد اللي يكون حامل　　في السلعة ما يفرز الشين من الزين

تبين لنا هذه الأبيات تذمر الشاعر وحزنه من الاستعمار، الذي وصفه بأنه جاء ليذل الشعب الجزائري في البيت الأول، لأن الاستعمار أعطى المسؤولية لبعض الموالين له ليذل بهم شعبا بأكمله. ويشجب أو يدحض في البيت الثاني مقولة فرنسا بأنها جاءت بالحضارة إلى الشعب الجزائري. ويقول فيه من يعمل الخير لا يمن، والموت بكرامة أفضل من الحياة تحت اضطهاد الاستعمار. ويتهم فرنسا بأنها أهانت الشعب الجزائري وسلبته خيراته، وحاولت طمس شخصيته. وتركت خيرة أفراده تائهين لا يعرفون ما يفعلون من هول الصدمة التي أصابتهم من استيلاء فرنسا على بلدهم. أما البيت الرابع فيصف الاستعمار بالوادي الحامل الذي يأخذ في طريقه كل شيء، لا يفرق بين الطيب والسيئ. وذلك مثل الاستعمار الذي لا يفرق بين الموالي له والذي يقف ضده، عندما تقتضي مصالحه ذلك فهو يعامل الجميع نفس المعاملة السيئة.

الخـاتمـة:

نختم بحثنا بإظهار العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع من خلال تحليل الدراسات المذكورة آنفا، التي تمثل نماذج أدبية تعكس واقع المجتمع الذي أجريت فيه، التي تشمل الأدب والأدب الشعبي شعرا ونثرا.

إذ بيّنت لنا الدراسة الأولى علاقة القصة الشعبية كلون أدبي بالواقع الاجتماعي الذي يعيشه أفراد مجتمع البحث. وفيما يخص وظائف القصة في المجتمع تقول إحدى الباحثات في الأدب الشعبي: "لقد لعبت القصة أدوارا عديدة تختلف حسب درجات الحضارة ومراحل التاريخ التي مرت بها شعوب العالم، حيث تعد أقدم الآثار الأدبية التي حفظتها الوثائق المكتوبة أو ذاكرة الإنسان، ومن أهم الأدوار التي لعبتها والدوافع التي أنشأتها: نقل الحوادث والتعويض عن الواقع ونقد المجتمع والتعليم، والتعبير عن أنواع الظلم الاجتماعي والاضطهاد الذي تعرضت له الشعوب على مر الأيام كما أنها كانت وسيلة للتسلية والتخفيف من حدة الآلام والضغوط التي عانت منها الطبقات الشعبية" (روزلين ليلى قريش، مرجع سابق، ص7). وهذا ما لمسناه في هذا النموذج من الدراسة حيث عكست لنا القصة الشعبية صورة حقيقية عن الواقع الاجتماعي لجزء من المجتمع الجزائري مثل طريقة التفكير والمعتقدات وعادات وتقاليد منطقة البحث.

ونستنتج من خلال الدراستين الثانية والثالثة حول الطعام في الشعر العربي القديم والشعر الملحون الديني الجزائري، العلاقة بين علم الاجتماع والأدب، حيث استخدم الباحث في الدراسة الثانية المنهج الأنثروبولوجي لدراسة ظاهرة الطعام من خلال الشعر العربي القديم. وجعلنا نتعرف على عادات وأنواع الأطعمة والأشربة لدى العرب القدامى من خلال قصائد تصف لنا ذلك.

وتظهر هذه العلاقة في الدراسة الثانية من خلال عرضها مدى تأثير المظاهر المحيطة بالشاعر الذي لا يمكنه العيش خارجها. وذلك لأنه كائن اجتماعي يعيش في فضاء يشمل جميع ظواهر الحياة الاجتماعية، التي تضم اللغة والدين والفن والأدب. ولا يستطيع أن يعيش حياته الخاصة دون التعبير عنها ضمن أحد هذه الأشكال، حيث يتدبر رموزا شفهية وأخرى دينية، وصورا أسطورية وفنية، وبواسطة ذلك يفهم الإنسان نفسه وغيره (محمد أحمد بيومي، 1983، ص45). حيث قدم لنا الشعر الشعبي الديني الجزائري مدى تمسك المجتمع بالعقيدة الإسلامية ودورها في حماية الشخصية الجزائرية والدفاع عن الثوابت الوطنية. وهكذا عرفنا مدى علاقة الشعر والقصة بالحياة الاجتماعية للناس، لأنهما جزء مهم من الأدب، وهذا الأخير يعد نظاما اجتماعيا لا يمكن الاستغناء عنه في المجتمع، لوظائفه النبيلة التي ترفه على الإنسان وتعبر عن مشاعره ومواقفه الإيجابية والسلبية.

مصادر ومراجع البحث:

المصادر:

1-بركة بوشيبة،المائدة في الشعر العربي القديم (قراءة انثروبولوجية)، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر 2009/2008.

2-ثريا التجاني، دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري (وادي سوف نموذجا)، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر 1998.

3-عبد القادر فيطس، الشعر الملحون الديني الجزائري (1830-1954) دراسة تحليلية، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر 2009/2008.

المراجع:

4-التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1990.

5-حسن الساعاتي، علم الاجتماع الصناعي، ط3، دار النهضة العربية، بيروت 1980.

6-حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأدب والمجتمع دراسة في علم اجتماع الأدب، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر 2005.

7-روزلين ليلى قريش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1980.
8-سهير القلماوي، فن الأدب- المحاكاة، مكتبة الحلبي، القاهرة 1953.
9-شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات، القاهرة 2005.
10-شكري عياد، أرسطو طاليس في الشعر، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967.
11-طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، ط2، دار المعارف، القاهرة 1980.
12-لوسيان غولدمان، مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، ترجمة بدر الدين عرودكي، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا 1993.
13-محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة (أصولها، اتجاهاتها، أعلامها)، منشأة المعارف، الإسكندرية 1987.
14-علي أسعد وطفة، علم الاجتماع التربوي،منشورات جامعة دمشق 1993.
مواقع الإنترنت:
http://www.alnadawi.com/vb/showtread.php?t-15
http://www.marefa.org/index.php/.-16
- AA%D9%85%D8%B9%-17